﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا كانت نِعَمُ اللهِ لا تُعَدُّ، وجبَ على مَنْ يتقلَّبُ فيها شكرُ المُنعِمِ بها

لَمّا ذكر اللّهُ تعالى قُدرتَه العظيمةَ في خلقِ السَّماواتِ والأرض، وبعضَ نعمِه الجليلة، كإنزالِ الماء منَ السَّماء، وتسخيرِ الفُلكِ والأنهارِ والشَّمسِ والقمرِ واللَّيلِ والنَّهار؛ بيَّن في هذه الآية أنَّه لم يقتصرْ على تلكَ النِّعم؛ بل أعْطَى عبادَه منَ المنافعِ والمُراداتِ ما لا يأتي على بعضِها التَّعديدُ والإحصاء؛ ولكنَّ الإنسانَ يظلمُ نفسَه، فيتمتَّعُ بتلك النِّعم ويجحدُ المُنعمَ بها ولا يشكره ﷻ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعُدُّوا۟﴾: (عدّ): العَيْنُ والدّالُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، لا يخلو من العَدِّ، والعَدُّ: إحْصاءُ الشَّيء، وضمُّ الأعدادِ بعضِها إلى بعض، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: 94]، تقولُ: عَدَدْتُ الشَّيءَ أعُدُّهُ عَدًّا، فأنا عادٌّ، والشَّيءُ معدودٌ، والعديد: الكَثْرةُ، والعَدَدُ: مقدارُ ما يُعدُّ[2]. وقولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ أيْ: إنْ تتعرَّضوا لتَعْداد نِعَم اللهِ[3].

2) ﴿تُحْصُوهَآ﴾: (حصو): الحاءُ والصّاد والحرفُ المُعتلُّ، ثلاثةُ أصول: الأوَّلُ: المنْعُ، والثّاني: العَدُّ والإطاقة، والثّالثُ: شيءٌ من أجزاءِ الأرض. والثّاني: هو ما يُناسبُ السِّياق هنا، وهو العَدُّ والطّاقةُ، مِن أحصيتُ الشَّيءَ: إذا عدَدْتَه وأطَقْتَه، قال تعالى: ﴿عَلِمَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (عدّ).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/151.

أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المُزَّمِّل: 20][1]. والإحصاءُ: التَّحصيلُ بالعدَد، وهو مُشتقٌّ من الحَصا اسْمًا للعدد، ومنقولٌ من الحَصى، وهو صغارُ الحِجارة؛ لأنَّهم كانوا يعدّون الأعدادَ الكثيرة بالحصى؛ تجنُّبًا للغَلط. قال تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجنّ: 28][2]. وقولُه تعالى: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي: لا تُطيقوا إحصاءَها وعدَّها بوجهٍ من الوجوه[3].

3) ﴿لَظَلُومٌ﴾: (ظلم): الظّاءُ واللّامُ والميمُ أصْلانِ صحيحان؛ أحدُهما: خِلافُ الضِّياءِ والنّور، والآخَرُ: وضعُ الشَّيءِ غيرَ موضِعه تعدِّيًا، والأصلُ الثّاني: هو ما يعنينا هنا: ظَلَمَهُ يَظْلِمُه ظُلْمًا[4]، من قولهم: "مَنْ أشْبَه أباهُ فما ظَلم"؛ أيْ: لم يَضَعِ الشَّبَهَ في غيرِ موضعِه[5]. وقولُه تعالى: ﴿لَظَلُومٌ﴾؛ أيْ: يظلمُ النِّعمةَ بإغفالِ شُكْرِها[6].

4) ﴿كَفَّارٌ﴾: (كفر): الكافُ والفاءُ والرّاءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على معنًى واحدٍ، وهو السَّتْرُ والتَّغطيةُ، ووُصِفَ اللَّيلُ بالكافرِ؛ لسَترِه الأشخاصَ، والزُّرّاعُ لسَترِه البذرَ في الأرض. وكان الكفرُ ضِدَّ الإيمان؛ لأنَّه تغطيةٌ للحقّ، قال تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء: 99][7]. وقولُه تعالى: ﴿كَفَّارٌ﴾؛ أيْ: شديدُ الكُفران للنِّعمة، يجمعُ ويَمْنَعُ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخاطبُ اللّهُ ﷻ عبادَه، مُمتنًّا عليهم فيقول: هيَّأ لكم كلَّ ما تحتاجونَ إليه، في جميعِ أحوالِكم ممّا تسألونَه بحالِكم وقالِكم،

نِعَمُ اللهِ على العبادِ أعظمُ مِن أن تُعدَّ، أو يُطاقَ تمامُ شُكرها

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حصوى).
(2) الرّاغب، المُفردات: (حصا).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/151.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظلم).
(5) الميدانيّ، مجمع الأمثال: 2/300.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (كفر).
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/151.

وأنتمُ يا عبادي عاجزون عن تعدادِ النِّعم، فَضْلًا عنِ القيام بشُكْرها، فهي حقُّ اللّه، وهو أثقلُ مِن أن يقوم به العبادُ، ويُطيقوا تمامَ شُكرها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواو في: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ للعطف[2]، عطفتْ نعمةَ الإعطاءِ على ما وردَ قبلَها منَ العطاءاتِ الرَّبانيَّة، والتَّسخيراتِ الإلَهيَّة، فجاءتِ الواوُ مع جُملتِها المعطوفةِ بمنزلةِ التَّذييلِ لما قبلَها، منَ المِنَنِ الرَّبّانيَّة على عبادِه، لحِكَمٍ يعلمُها اللّهُ تعالى ولا يعلمونها، مصداقُها قولُه تعالى: ﴿۞وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشّورى: 27][3].

الـــواوُ عـاطـفـةٌ لجـملـةِ تـذييـلِ النِّعمِ لِما قبلَها

إيثارُ التَّعبيرِ بالإيتاءِ لا الإعطاءِ:

آثرَ سياقُ الآيةِ التَّعبيرَ بالإيتاءِ دونَ الإعطاء؛ فقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾، ولم يَقل: (وأعطاكم)؛ لأنَّ الإيتاءَ خاصٌّ بالأمورِ الماديَّةِ الماليَّة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: 229]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البقرة: 247]، وأكثرُ ما يسألُ العبادُ ربَّهم منَ النِّعم، هذا الصّنفُ منَ الإعطاءِ.

الإيـتـاءُ خـاصٌّ بالأمورِ المادِّيَّةِ، مـع المـشـاركـةِ فيها

والإعطاءُ: الإنالةُ، قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التّوبة: 29]، فهو مُختصٌّ بالصِّلة، قالَ تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: 39][4]. وفي الإعطاء دليلُ التَّملُّكِ دونَ الإيتاء، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: 1]، فإنَّه كان له منعُ مَن

(1) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم: 2/494.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/194.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/236.
(4) الرّاغب، المُفردات: (أتى) و(عطا).

شاءَ منه كالمِلكِ للمِلك، وأمّا القرآنُ فحيثُ إنّ فيه مشاركةَ أُمَّته ﷺ له في فوائدِه، ولم يكن له منعُهم منه، قالَ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحِجر: 87][1]. ولذلك قالَ تعالى هنا في الآية: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، فالَّذي يُؤتيهِ اللّهُ لعبادِه يُجمعُ منه مع النِّعم المادِّيَّة في الغالب مشاركةُ غيرِ المُؤتَى له فيما آتاه اللّهُ، من وَلَدٍ ووالدَيْن وزوجةٍ، وغيرِ ذلك.

سِرُّ اسْتعمالِ الماضي في الآية:

مَنْ يسألِ اللهَ مؤمنًا يُؤْتِهِ مِن فضْلِه

لَمّا كان المُرادُ تحقُّقَ الإيتاءِ منَ اللّهِ تعالى، بعدَ تحقُّقِ سؤالِهم ربَّهم أنْ يُؤتيَهم من نِعَمِه وفَضْله، جاءَ اسْتعمالُ السِّياقِ لتلكما الصِّيغتَيْن بالزَّمنِ الماضي، بقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾، و﴿سَأَلْتُمُوهُ﴾؛ لإفادةِ هذا التَّحقُّقِ وتأكيدِ حصولِه؛ وقد أمرَ اللّهُ عبادَه أنْ يسألوه من فَضْله، فقالَ ﷻ: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النِّساء: 32].

فائِدةُ التَّعبيرِ بضميرِ المُخاطَبين ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾:

مزيدُ الاهْتمامِ بالمخاطَبين

في التّوجُّه للعبادِ بضميرِ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ مزيدُ اهتمامٍ بهم، فهم خَلْقٌ من خَلْقِ اللّهِ ﷻ؛ بل هم في موضعِ تخصيصِهم بالتَّكريم من بين سائرِ المخلوقات، كما قالَ تعالى: ﴿*وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، والاهتمامُ بهم وتكريمُهم، يقتضي الاهتمامَ بإيتائهم من كلِّ ما سألوه.

وجهُ الجمعِ بين ﴿مِّن﴾، و﴿كُلِّ﴾:

تقتضي حِكمةُ اللّهِ تعالى إعطاءَ بعضٍ مِن عُمومِ مَرغوباتِ السّائلين

﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن كُلِّ﴾ تُفيدُ التَّبعيضَ، و﴿كُلِّ﴾ تفيدُ العمومَ؛ أيْ: أعطاكم بعضًا من جميعِ ما سألتموه من مَرْغوباتِكمُ الخارجةِ عنِ اكْتسابكم، بحيث شأْنُكم فيها أن تسألوا اللّهَ إيّاها، وذلك وَفْقَ ما تَقْتضيه مشيئتُه التّابعةُ للحِكمةِ والمصلحةِ، كقولِه ﷻ: ﴿مَّن كَانَ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 86، والكفويّ، الكلّيّات: 1/360.

يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: 18][1]. ويمكنُ أن تكونَ ﴿مِّن﴾ للبيان، وكلمةُ ﴿كُلِّ﴾ للتَّكثير، كقولِكَ: (فلانٌ يعلم كلَّ شيء، وأتاهُ كلُّ النّاسِ)؛ أيْ: آتاكم مِن كلِّ ذلك، ما احتجتُم إليه، ونِيطَ بهِ انْتظامُ أحوالِكم على الوجهِ المُقدَّر، فكأنَّكم سألتموه، أو: كلَّ ما طلبتُموه بلسانِ الاسْتعدادِ، أو: كلَّ ما سألتموه[2].

دَلالةُ ﴿مَا﴾، وإضافةِ ﴿كُلِّ﴾ إليها:

جُمِعَ ﴿مَا﴾ و﴿كُلِّ﴾؛ لإفادة العمومِ

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ يصحُّ أن تكونَ مصدريَّةً، وتكونَ ﴿كُلِّ﴾ لاسْتغراقِ العموم؛ أيْ: جميع أسئلتِكم، ويكونَ الضَّميرُ في ﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ عائدًا على اللهِ تعالى. ويصحُّ أن تكونَ ﴿مَا﴾ بمعنى (الَّذي)؛ أيْ: جميعُ الَّذي سألتُموه[3]، ويكونَ الضَّميرُ في ﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ عائدًا على ﴿ٱلَّذِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [إبراهيم: 32].

دَلالةُ الإضمارِ في ﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾:

لا مُؤتيَ لسُؤْلِ العبدِ إلّا الله تعالى

جاءَ الضَّميرُ في ﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ بدلَ التّصريحِ باسْمِ الجلالةِ أو الرَّبِ؛ عَوْدًا على ما تقدَّمَ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [إبراهيم: 32] مُقترنًا مع الإيتاءِ في هذا العَوْد، للدّلالةِ على أنَّ المُؤْتيَ لِما سألتُموه هو اللهُ، الَّذي خلقَ تلك المُكوّناتِ العظيمةَ والنِّعمَ الجليلةَ.

دَلالةُ الواوِ في ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾:

نِعَمُ اللهِ عظيمةٌ، سأل العبدُ أم لم يَسألْ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ عَطَفتْ ما يدلُّ على تحقُّقِ وجهِ العِظَم، بفرْضِ ما يوجِبُ العَجْزَ على سؤالِهم ما هم مُحتاجونَ إليه،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/264، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/236.

(2) أبو السُّعود: إرشاد العقل السّليم: 2/264.

(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/340، والعُكبريّ، إملاء ما منّ به الرّحمن: 2/69، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.

وإعطائهم إيّاه، وإعطائهم ما لم يَسألوه، فكان العطفُ والمعطوفُ عليه في كِفتي ميزانٍ متعادِلَتيْنِ مُتَساوِيتَيْن[1].

نُكتةُ مجيءِ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ بعد ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾:

جاءتْ جملةُ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ تأكيدًا للتَّذييلِ، وزيادةً في التَّعميم الواردِ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، وتنبيهًا على أنَّ ما آتاهم اللّهُ، كثيرٌ منه معلومٌ، وكثيرٌ منه لا يُحيطونَ بعلمِه، أو لا يتذكَّرونَه عند إرادةِ تَعْدادِ النِّعم[2].

نِعَمُ اللهِ لا تُحْصَى، ولا يُحيطُ بها فردٌ

سِرُّ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ (إنْ):

تُستعملُ (إنْ) عندما يكونُ هناك عدمُ ترجيحٍ لحصولِ الفعل، فَعَدُّ نعمِ اللهِ غيرُ مُتوقَّعٍ، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ كأنَّه يقول: إنْ تُحاولوا العَدَّ وتأخُذوا فيه، ويترتَّب عليه رَبْطُ ما بعدَه به؛ أيْ: جوابُ الشَّرطِ هو عدمُ الإحصاءِ مُترتِّبٌ على فعلِه، وهو العَدُّ، وهذا يَدلُّ على أنَّ نِعَمَ اللهِ كثيرةٌ، لا يمكنُ عَدُّها أو ضَبْطُها.

عَدمُ الإحصاءِ مُرتبطٌ بعدمِ الإحاطةِ بالعدِّ، إنْ حاولتُم فيه

دَلالةُ الخِطابِ: ﴿تَعُدُّواْ﴾، و﴿تُحْصُوهَآ﴾:

دلَّ قولُه تعالى: ﴿تَعُدُّواْ﴾ على عدِّ النِّعَم على الإجمال، وهو داخلٌ تحتَ محاولةِ العَدِّ؛ أيْ: إن تحاولوا العَدَّ وتأخذوا فيه. ودلَّ قولُه تعالى: ﴿تُحْصُوهَآ﴾ على ضَبطِ العَدَد بالتَّفصيل، والإحصاءُ مُشتقٌّ منَ الحصا اسْمًا للعَدَد، ومنقولٌ منَ الحَصَى، وهو صغارُ الحِجارة؛ لأنَّهم كانوا يَعدّون الأعدادَ الكثيرةَ بالحَصَى؛ تجنُّبًا للغَلَط، فالعَدُّ بدايتُه والإحصاءُ نهايتُه[3]. واللّهُ تعالى يُخاطبُ عبادَه بهذيْن الفعلَيْن: ﴿تَعُدُّواْ﴾ و﴿تُحْصُوهَآ﴾، فيقول: إنْ تُحاوِلوا عَدَّ نِعَمِ اللّهِ تعالى لا تَحْصُروها، ولا تُطيقوا عدَّها وبلوغَ آخرِها لكثرتِها،

عَـدُّ الـنِّـعَـمِ وحَصْرُها إجمالًا وتـفـصـيـلًا لا يُطيقُه البشرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/421.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/236.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.

هذا إذا أردتُم عَدَّها على الإجمال، وأمّا التَّفصيلُ: فلا يقدرُ عليه ولا يعلمُه إلّا اللّهُ ﷻ[1].

إيثارُ مجيءِ ﴿تَعُدُّواْ﴾ و﴿تُحۡصُوهَآ﴾ مضارعَيْن:

مهما دامتْ محاولةُ العَدِّ فلن تَستطيعوا الإحصاءَ والضَّبطَ

جاءَ فعلُ الشَّرط ﴿تَعُدُّواْ﴾ وجوابُه ﴿تُحۡصُوهَآ﴾ بصيغةِ المضارعِ؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ محاولةِ العَدِّ لنِعَمِ اللّهِ واسْتمرارِها، وتجدُّدِ ضبطِ العددِ بالإحصاءِ واسْتمرارِه، وكما أنَّ القُدْرةَ على العَدِّ والضَّبطِ الكاملِ إجمالًا وتفصيلًا غيرُ مُتحقِّقةٍ، فكذلك أيُّ تجدُّدٍ واسْتمرارٍ لكلٍّ منَ العَدِّ والإحصاءِ غيرُ متحقِّقٍ، وسَينقلبُ مُحاولُها خاسئًا وهو حَسير[2].

نُكتة إفرادِ ﴿نِعۡمَتَ﴾:

النّعمةُ الواحدةُ تحوي في طيّاتِها نِعَمًا كثيرةً

النِّعمةُ هاهنا اسْمٌ أُقيمَ مقامَ المَصدر، يُقال: أنْعَم اللّهُ عليه، يُنعِمُ إنعامًا ونِعْمَةً، فأُقيمَ الاسْمُ مَقامَ الإنعام، كقولهم: أنفقتُ عليه إنفاقًا ونفقةً بمعنًى واحدٍ؛ ولذلك جاءَ ﴿نِعۡمَتَ﴾ بالإفرادِ دون الجمع؛ لأنَّه في معنَى المصدر، وفي الإفراد إشارةٌ إلى احتواء كلِّ نعمة عددًا لا حصْرَ له منَ النِّعم، وفيه دعوةٌ إلى كثرة الشّكرِ والتّأمُّلِ فيما أنعم اللّهُ به علينا، مِن نِعَمٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ.

سِرُّ رسْمِ تاء ﴿نِعۡمَتَ﴾ مبسوطةً:

رسْخَ بَسْطُ التّاءِ سَعةَ نِعَمِ الله، وعَدَمَ إمكانِ عَدّها

جاء رسمُ ﴿نِعۡمَتَ﴾ بالتّاءِ المبسوطةِ؛ لأربعة أمورٍ؛ الأوَّلُ: أنَّ التّاء ارتبطتْ بالاسمِ، وهو هنا لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، فأصبحتْ بمعنى الفعلِ فتُفتحُ عندئذٍ. والثّاني: قولُه: بالتّاء، بمعنَى النِّعمةِ الحاصلةِ بالفعل في الوجود، فكأنَّها مضتْ فلم تُشْكَرْ، فكانت بمثابة فعلٍ ماضٍ، فَفُتحتْ تاؤها، ويدلُّ على ذلك أنَّ التَّذييلَ جاءَ بأنَّ الإنسانَ ظلومٌ كفّار، فهي نِعْمَةٌ متَّصلةٌ بالظَّلوم الكَفّار في تنزُّلِها[3]. والثّالثُ:

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/482، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/3615، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/99.
(3) ابن البنّاء، عنوان الدّليل من مرسوم خطّ التّنزيل، ص: 110.

أنَّها تدلُّ على النِّعمةِ الخاصَّةِ الَّتي وهبَها اللّهُ لعبادِه المؤمنين، كما تدلُّ على النِّعَمِ المفتوحةِ الَّتي لا يمكنُ إحصاءُ عددِها. والرّابعُ: تنبيهُ القارئ والسّامعِ على تدبُّرِ هذه الآية وما حولَها منَ الآياتِ، في السِّياق الَّذي وردتْ فيه؛ لاستخلاصِ الحِكْمةِ والعِبرة[1].

فائِدةُ إضافةِ ﴿نِعْمَتَ﴾ إلى اسمِ الجلالة:

في إضافةِ ﴿نِعْمَتَ﴾ إلى اسْمِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ تَنبيهٌ على أمورٍ ثلاثةٍ؛ الأوَّلُ: أنَّ الَّذي خلقَ لكمُ النِّعمَ الَّتي تتقلَّبون فيها ليلَ نهارَ، هو اللّهُ لا أحدَ سواه. والثّاني: أنَّ حقَّ اللّهِ تعالى المُنعِمِ عليكم بهذه النِّعم، هو شكرُه ﷻ. والثّالثُ: أنَّ حَقَّ اللّهِ تعالى أثقلُ مِن أن يقومَ به العبادُ، ونِعَمُه أكثرُ مِن أن يُحصيَها العادُّ، فما عليكم إلّا أن تكونوا توّابينَ أوّابينَ لتقصيركم في شُكْرِ المُنعِم، أو غفلتِكم عنه[2].

واجبُ العِبادِ شُكرُ المُنعِمِ والتَّوبةُ إليه

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالإحصاءِ لا بغيرِه:

جاءَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ للدّلالةِ على عدمِ حَصْرِها وضَبطِها، وعدمِ القُدرةِ على إطاقةِ عَدِّها وبلوغِ آخرِها؛ ولا يَقدرُ على ذلك ولا يعلمُه إلّا اللّهُ ﷻ، ولا يوفِّرُ هذا المعنَى ولا يُحقِّقُه إلّا التَّعبيرُ بلفظِ الإحصاء، وذلك كما في قولِه تعالى في شأنِ وجوبِ قيامِ اللَّيلِ على الصَّحابة رضي الله عنهم: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المُزَّمِّل: 20][3].

لا يُطيقُ البَشرُ عَدَّ نِعَمِ اللهِ تعالى فضْلًا عن إحصائِها

سِرُّ فصلِ جملةِ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ عمّا قبلَها؛ تأكيدًا لمعنَى الاستفهامِ الإنكاريِّ المُستعمَلِ في تحقيقِ تبديلِ النِّعمةِ كفرًا[4].

تأكيدُ معنَى تبديلِ النِّعمةِ كُفرًا

علَّةُ تصديرِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ بالتَّوكيدِ:

صُدِّرت جملةُ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ بأداةِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾؛ لتأكيدِ معنَى

الإنسانُ هو مَنْ بدَّلَ نعمةَ اللهِ كُفرًا

(1) محمّد شملول، إعجاز رسم القرآن، ص: 174 - 175.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/340.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/422.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.

الاسْتفهامِ الإنكاريِّ في قولِه تعالى: ﴿*أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: 28]؛ أيْ: التأكيدِ أنَّ الإنسانَ هو الَّذي بدَّلَ نعمةَ اللّه كفرًا، وهو الظَّلومُ الكفّار[1].

دَلالةُ (ال) والتّعبيرِ بالـ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ دون مرادفاتِه:

الإنسانُ الظّالمُ الكافرُ، وليس كلُّ ابنِ آدمَ كذلك

المرادُ بالإنسانِ هنا: النَّوعُ والجِنسُ، والمعنَى: الإنسانُ الَّذي توجَدُ فيه هذه الخِلال، وهي الظُّلمُ والكُفر، فإن كانت هذه الخِلالُ مِن جاحدٍ؛ فهي بصفةٍ، وإن كانت مِن عاصٍ؛ فهي بصفةٍ أُخرى، ولذلك احْتُرِزَ بهذا المعنَى عنِ اسْتعمالِ لفظِ (ابن آدم)[2].

فضلًا عن أنَّ ذِكْر ﴿بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70] في القرآن جاء في مقاماتٍ ليس مِن بينها الجُحودُ والكُفران، بل ورد في مقام الإنعام، كما في قوله: ﴿*وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، أوِ التّذكيرِ بقصّة آدمَ وإبليسَ؛ للتّحذير كما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: 26]، وقولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، وقولِه تعالى: ﴿*أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: 60]، أو لبيانِ عِظَم الجريمة، وهي أن يقتل الأخُ أخاه مع صَلاح الأبِ، كما في قولِه تعالى: ﴿*وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآيات [المائدة: 27 - 31].

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لَظَلُومٌ﴾ وإيثارِ اللّفظِ على غيرِه:

تأكيدُ صِفةِ الظُّلمِ عند الإنسان، والمبالغةُ في تحقُّقِه بها

اللّامُ في ﴿لَظَلُومٌ﴾ لتأكيدِ صفةِ الظُّلمِ في الإنسان؛ إذ يَظلمُ النِّعْمَةَ بإغفالِ شُكرِها، ولا أشدَّ ظُلمًا لنفسِه منَ المُشركِ باللّهِ، الكافرِ به، وجاءت صيغةُ ﴿لَظَلُومٌ﴾ للمبالغةِ في وصْفِ الإنسانِ بالظُّلم، فهو ظَلومٌ، في الشِّدَّةِ يَشكو ويجزَعُ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 9/340.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/423، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.

دَلالةُ صيغةِ ﴿كَفَّارٌ﴾، وسِرُّ مجيئِها بعد ﴿لَظَلُومٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ جاءت صيغةُ ﴿كَفَّارٌ﴾ للمبالغةِ في وصفِ الإنسانِ بالكُفر، وسيقتْ بعد صيغةِ ﴿لَظَلُومٌ﴾ لبيانِ أنَّ الإنسانَ بمقدارِ كَثْرةِ النِّعَم يَظْلِمُ نفسَه، إذْ بَدلَ أنْ يشكرَ المُنعِمَ يَجْحَدُه، فهو شديدُ الكُفرانِ للنِّعمة، يَجْمَعُ ويَمْنَع، فيكونُ ذلك سبيلًا لكُفْرِه، إذْ يُعرِضُ عن عبادةِ المُنعِمَ، ويعبدُ ما لا يُغْني عنه شيئًا، فأمّا المؤمنُ فلا يجحدُ نِعَمَ اللهِ تعالى، ولا يَعْبُدُ غيرَه[1].

المبالغةُ في وصْفِ الإنسان بالكُفر هو أشَدُّ الظُّلْمِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السُّؤالُ والطَّلبُ:

السُّؤالُ يكونُ بالقولِ وبالفعلِ، ولا يكون السُّؤالُ إلّا كلامًا، والسُّؤالُ يَستدعي جوابًا؛ إمّا باللِّسانِ أو باليد.

والطَّلبُ يكونُ بالسَّعْيِ وغيرِه، ولذلك قيلَ: عليكَ الهَرَبُ وعَلَيَّ الطَّلَبُ. والطَّلبُ قد يَفتقرُ إلى جواب وقد لا، وكلُّ سؤالٍ طَلَبٌ، وليس كلُّ طَلَبٍ سؤالًا[2].

السُّؤالُ بالقولِ وبالفعلِ، ويَستدعي جوابًا، وهو أعمُّ منَ الطَّلبِ

ولمّا كان السّؤالُ يُؤدَّى باللّسان وباليد، ويستدعي جوابًا؛ ناسبَ طبيعةَ سؤالِهم الّذي سألوه اللّهَ تعالى، وآتاهم منه وِفاقَ حِكمته.

العَدُّ والإحصاءُ:

العدُّ: إحصاءُ الشَّيْء، وضَمُّ الأعدادِ بعضِها إلى بعض، من غير حفظٍ، قالَ تعالى: ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: 94]. والعَدَدُ: مِقْدارُ ما يُعَدُّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾[3].

العَدُّ إحصاءُ الشَّيْءِ بعد ضَمِّ أعدادِه، والإحصاءُ تحصيلُه بالعدَد

وأمّا الإحصاءُ: فيكونُ مع العَدّ الحِفْظُ والإحاطَةُ، وهو مُشتقٌّ من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287، والكفويّ، الكلّيّات: 3/16، 153، والجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 128.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (عدّ).

الحَصا اسْمًا للعدَد، ومُستعارٌ من الحَصَى، وهو صغارُ الحجارة، فالإحصاءُ هو التَّحصيلُ والضَّبطُ بالعدَد، قالَ تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجنّ: 28][1]؛ وعلى هذا فمعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي: إن تعدّوا نِعَمَ اللّهِ تعالى بِضَمّ بعضِها إلى بعض أعدادًا، لن تَقْدِروا على حفظها، ولا الإحاطةِ بها؛ إذ لا يَقْدِرُ على ذلك أحدٌ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (حصا).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 25 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-22-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 25 : المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-22-7
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-3019282 بتاريخ 2024/02/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»